ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Recognition and social taboo in the Arab feminist novel

Resea. Hassan Jabbar Abbas

Prof. Dr. Jassim Hussein Sultan

Wasit University/ College of Education for Human Sciences

Email:
hassan02995@gmail.com
07802792709

Keywords:

Confession, social taboo, feminist novel.

Article info

Article history:

Received 15.AUG.2023

Accepted 17.SEP.2023

Published 20.NOV.2023

A B S T R A C T

The feminist novel played an active role in highlighting the status of Arab women. As the texts presented concepts and issues, they worked to transcend the usual stereotype around which they were drawn, and despite the many obstacles they faced, they overcame all of that by transgressing the taboos. The woman's exit revealed the stereotype in an attempt to show her voice, or an attempt to be dominated by the narrative text; The reality of the coercive conditions that try to marginalize and imperfect her,as a female living in societies governed by inherent taboos .

Confession was the most important way, from two aspects, one of them: In order to prove the identity and expose the repressed that has long been silenced, in an attempt by the female herself for criticism and reform, and the other side: represented in the statement of development and the space of freedom that the female obtained, which enabled her to declare her revolution against the taboos and the supervisory authority by presenting her confessions.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol53.Iss1.3743

الاعتراف وكسر المحظور الاجتماعيّ في الرواية النسويّة العربيّة/ في ضوء الدراسات الثقافيّة

الباحث: حسن جبار عباس أ.د. جاسم حسين سلطان الخالدي

جامعة واسط / كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

الملخص:

لعبت الرواية النسويّة دورًا فاعلًا في إبراز مكانة المرأة العربيّة؛ لما قدّمتـه النصوص من تصورات وقضايا، عملت على تجاوز النمطيّة المعهودة التي رُسمت حولها، وعلى الرّغم من العثرات العديدة التي واجهتها؛ إلّا أنّها تخطّت كلّ ذلك بتجاوزها المحظورات، فاظهر النّص السرديّ النسويّ وجهـة نظر المرأة بلغتها التي تعرض اعترافاتهـا، في بنية اجتماعيّة وثقافيّة ذكوريّة غالبة، وقد كشف خروج المرأة على النّمطيّة في محاولة إظهار صوتهـا أو محاولة تسيّدها النص الســرديّ؛ واقع الظروف القسريّة التي تحاول تهميشها وإظهارها بالشّكل النّاقص، بوصفها أنثــى تعيش في مجتمعات تحكمها المحظورات المتأصلة.

وقد شكّل الاعتراف السبيل الأهم، وذلك من جانبين أحدهما: من أجل اثبات الهويّة وتعرية المكبوت الذي طالما سُكت عنه، في محاولة الأنثى نفسها من أجل النقد والاصــلاح، والجانب الآخر: تمثّل في بيان التطوّر وفسحة الحريّة التي حصلت عليها الأنثى، ممّا مكّنها من اعلان ثورتها على المحظورات والسلطة الرقابيّة بعرض اعترافاتها.

الكلمات المفتاحيّة: الاعتراف، المحظور الاجتماعي، الرواية النسويّة.

المقدمة:

لقد مثّل الاعتراف وتجاوز المحظور الطّرح الأهم، والرّكيـزة الأساس التي قامت عليها النسويّة في إبداعاتهن الروائيّة، فالمحظورات أو الثالـوث المحـرّم، هي أوصافٌ أُطّلقت علـى القضايـا التي عُدَّت "حقول ألغام، على الكاتب أن يتحرّك فيها بحذر شديد". (ستاغ، ١٩٩٥: ١١١).

إن موضوع الاعترافات في هذه الدراسة ينطلق من فكرة مواجهة الذّات الانثوية للآخر بتعدّد اشكاله، فتقوم على تجاوز واختـراق حدود الممنوع التي تم التآلف على أنّها خطوط حمراء، ممّا أظهر مدى التطوّر أو التغيير والتّحـرّر الذي طرأ على الشخصيّة النسويّـة، فبعضها أسهم في نقد وإصلاح الـذّات، وكذلك أسهـم في دراسة مشكلات المجتمع، ومعالجـــة الاختـلال الذي قد يصيب القيـم، ومن ثمّ التغلّب على أغلب المعوّقات التي تصاحب التنشئة، ومعضلات التربيّة السليمة. (النجدي، ٢٠١٧: ٢٣ ـ ٢٤)، وإنّ عينات البحث اعتمدت الرواية النسويّة العربيّة التي يغلب عليها الاعتراف بقضايا تمسّ الجانب الاجتماعي الذي تخطّت فيه الأنثى/البطلة سلطته الرقابيّة، للبوح بقضايا طالما أرّقتها، وباتت من المحظورات عليها.

الاعتراف والمحظور:

إنّ تناول بطلة الروايات القضايا المحظورة المتعدّدة؛ سببه فسحة الحريّة التي تمتلكها، ممّا مكّنها من إعلان ثورتها، وعدم مبالاتها بمجمل القيود التي قد تحدُّ من خطواتها، إذ عكست وعيها التّام بواقعها، ومن ثمّ تحدث الإشكاليّة في تجاوزها حدود السائد والتقليديّ للمحظور، ويظهر سؤال يطرح نفسه حول قضايا المحظور المتعدّدة ، ومنها الاجتماعيّة ومسألة طرحها، والتجاوز على نواميس المجتمع وأعرافه، التي قد تتمثّل بظهور مشاهد جنسيّة مكشوفة، أو تناول قضايا دينيّة وسياسيّة؛ فالسؤال هنا: ما الغاية من ذلك الطّرح؟ وهل يخدم أهداف أدبيّة، أم فنيّة، أم نفسيّة، أم أنّها طُرِحت لغرض مكاشفة المجتمع وصدم المخيّلة العربيّة التي طالما كبّلت حريّة المرأة، واعتادت على قمعها؟

والمحظورات الاجتماعيّة متعدّدة، إلّا أنّ الأنثى/البطلة في بعض الرواية النسويّة استطاعت أن تتجاوز السلطات الرقابيّة المهيمنة وتقدّم اعترافاتها، سواءً كانت السلطة الرقابة الذاتيّة، أم السلطة الخارجية، ومن بين أهم المحظورات:

١ ـ الجنس والحب:

إنّ الجنس، بوصفه موضوعًا وقضيةً، اتّخذ مساحةً بالغة الأهميّة عند الإنسان بصورة عامّة، وفي عالم السّرد الروائيّ بصورة خاصة؛ لفسحة الحريّة التي تقدمّها الرواية، فتكون متنفسا للاعتراف، إذ تعرض على صفحاتها قضايا محظورة، وبالأخص قضايا الجنس والحب، بغية معالجة ما يعدُّ محرمًا اجتماعيًّا؛ وكذلك من جانب البناء الفنيّ الذي يشكّل طريقة مهمّة من الكاتب لجلب المتلقّي أو القارئ باستمالة غرائزه، وبالأخص عندما يكون في مجتمع يُحكم قبضته عليه "فالجّنس ـ حين يكون تعاطيًا إنسانيًّا ـ يصبح فاعليّة اجتماعيّة أيضًا" (مينه، ١٩٩٢: ١٣٢).

وبما أنّ النسويّة هي مجال الدّرس والموضوع؛ فإن الخوض في الجّنس والحب يعدُّ "شكلًا من أشكال اختراق المحظور، خاصّة إذا كان صاحب الطّرح هو المرأة" (بوزة، ٢٠١٦: ٩٨). ففي رواية (رجالي) (مقدم، ٢٠٠٦م) للكاتبة (مليكة مقدم)، تتّضح صور التمرّد بشكل جليٍّ، إذ تُعَبّر عنه بطلة الرواية/الكاتبة في بيان نظرة المجتمع السّاخطة عليها؛ لخروجها على الطباع والتقاليد والأعراف السائدة في محيطها وبيئتها، فصوّرت بمشهد حالة من حالات المجتمع النّاقم، ومنها حالة أمّ الشاب (جميل) الذي ارتبطت معه البطلة بعلاقة حب يحضرها المجتمع وتراكماته، إذ تعترف بعلاقتها معه، وتصف موقفها لحظة زيارة والدته إلى بيتهم عندما علمت بعلاقتهما، وقرّرت منعهما من المضي بتلك العلاقة التي أنهتها البطلة سلفًا، لرؤيتها وتطلّعاتها البطوليّة المتمرّدة الطّامحة التي لا تتوافق مع ذلك الحبيب، فتتبادل الدّور مع الآخر/الذكر، بتحديد المصير وأخذ زمام المبادرة، إذ تقول: "ذات يوم عطلة، حضرت والدته إلى بيتنا ووقفت قبالتي. فجعلني الفزع أتسمّر في مكاني ... فاستجمعت قواي تحسبًا للدّفاع عن نفسي، وأيًّا كان الموضوع الذي ستتحدّث به سأتحاشاه" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٣٢) كانت تلك بداية تمرّدها، فإعلانها عدم المبالاة، واستعدادها لمواجهة السلطات الرقابية، وقبلها علاقتها الغراميّة مع (جميل) مثّل انتهاكًا للمحظور الاجتماعيُّ، والذي حاولت أن تعرض بعض ردود الأفعال تجاه ما تقوم به، ومن ذلك ما جسّدته بموقف والدته "كنت أحسُّ من هسيس تنفسها أنّها ترغب في سلخ جلدي وقتلي. كانت عيناها تعبّران لي عن ذلك، وهي ترميني بنظراتها الخبيثة ما أن تشيح أمي ببصرها " (مقدم، ٢٠٠٦م: ٣٤).

ففي مجتمع يتعامل مع الأنثى على أساس المحظورات، والسلطة الأبويّة والدينيّة؛ تستبق البطلة الأحداث لتعلن عن تمرّدها صراحة، إذ تقول: " ثمّ لاحقا، في مغامرات عشقي سأتّخذ كلّ الوضعيات التي يمكن تخيّلها، أكثر من وضعيات المرأة المستلقية المضروبة " (مقدم، ٢٠٠٦م: ٢٢ ـ ٢٣).

لقد أثرت السطلة الرقابيّة، والمحظورات في وعي البطلة، ممّا شهد ولادة شخصيّة جديدة قادرة على المواجهة، وتمتلك الجرأة ما مكّنها من الكشف عمّا يجول في خاطرها، وما مرّت به من تجارب وأحداث؛ كجانب من جوانب الوعي، ومحاولة التحرّر والانتصار للذّات، وبناء شخصيّة قويّة تتحدّى المحظور معلنة عن ذلك صراحة، ومنها توقها للحصول على الحب فتعترف بذلك قائلة "كنت أريد شيئا من الحب والفرح ، وفي سعي للفوز بهما كانت الحريّة هي ما ظفرت بها. أولى محاولات التمّرد والعصيان تلك، مرّنتني على دخول معترك الحياة، وجعلتني استعدُّ للمشاكسة ومواجهة القهر، وستكفل الحماقات والمظالم الاجتماعية القاسية، بتوسيع ساحة المعارك والحفاظ على الرّوح القتاليّة في حالة تأهب دائم" (مقدم، ٢٠٠٦م: ١٥).

تكشف بطلة رواية (رجالي) عن حجم المعاناة التي لاقتها المرأة، بسبب الكبت وما خلّفه من آثار بدت واضحة عن طريق اعترافات البطلة في نصوصها التي أظهرت ممارستها للحبّ والجنس، بدءًا من عتبة العنوان (رجالي)، وانتقالاتها في عرض علاقات الحب، والشبق الجنسيّ مع رجالها، وكأنّها تحاول إثارة ما يعانيه المتلقّي من كبت، سببه المحظورات التي تتربّع وتتسلّط على وعيه وتقمع إنسانيته، ففي بداية علاقاتها وباعتراف جريء، تبوح البطلة بعلاقة حبّ كانت تربطها مع زميل لها في دراستها الثانويّة، تصف فيها مدى تعلّقها به، واللّقاء الأول الذي يعد اختراقا للممنوع في مجتمع يحظر ذلك "ذات يوم، حيث قادتنا رحلتنا عبر بيشار، تسلّقنا جميل وأنا الكثيب الشاسع على حافّة الوادي. حينما بلغنا القمّة لاهثين أمسك جميل بيديّ وشدّني إليه بلطف وقبّلني. رأيت الكثيب والسماء في حلكة عينيه وشعرت بجسدي يذوب على شفتيه. فجأةً ذُهلنا لجرأتنا بقدر ما انتابنا القلق وغريزة الخوف" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٣٠).

إنّ القضايا المحظورة في موضوع (الجنس والحب) متمثّلة بالجسد الأنثويّ، من الموضوعات التي كانت في متناول الرواية النسويّة، إذ اعتمدت في بعضها على البوح، والمكاشفة في مجتمعات محافظة تمتلك سلطتها الرقابيّة ، لتعلن من خلالها تمرّدها وثورتها على المحظور، في محاولة لانتزاع الحريّة، وهذا ما صرّحت به بطلة (رجالي) "لم يكن جسدي إلّا ظلًّا مضمرًا، وكان انتزاع القليل من الحريّة يحشد كلُّ طاقتي. كانت الصّرخة والثّورات لغتي الوحيدة" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٥٠).

إنّ انتقالات حياة المرء، وتحوّلها إلى بيئة أكثر حريّةً وانفتاحًا؛ يسهم في اتساع أُفق الحريّة، ومن ثمَّ اتساع حريّة الحياة وحريّة التعبير، وهذا ما اتضح في رواية (مليكة مقدم)، فبعد انتقال البطلة/الكاتبة إلى مكان آخر لإكمال دراستها في الطّب، وجدت متّسعًا لممارسة حريّتها، فتعترف بعلاقة غراميّة مع شابٍّ يدعى (سعيد)، إذ تُباشر مسرعة بعد انتزاع نفسها من أحضانه وعناقه، لتروي لزميلاتها ما يحدث بينهما، وكأنّها تحاول أن تؤكّد لنفسها أنّها تعيش حقيقة الحياة التي كانت تتطلّع لها، وكأنّ الحب والجنس الذي أخذت تمارسه بحريّة أكثر صالحها مع جسدها وبلدها الجزائر الذي عاشت معه بخصومة جعلها تتنصّل عنه، لعُقدِ مجتمعه الكثيرة، وعدم نضجه (مقدم، ٢٠٠٦م: ٥٤ ـ ٥٥).

وقد يتبيّن أنّ اعترافات البطلة ومجاهداتها لا تعني لها "سوى تحدٍّ معلن لتقاليد صارمة تفرض ثقافة أُحاديّة لا يجوز الخروج عنها" (كاظم، ٢٠١٢م: ٢٤). في محاولة لإثبات الذّات والانتصار لها، وهذا ما عملت على إظهاره البطلة/الكاتبة عن طريق اعترافها الجريء بعلاقتها الجسديّة مع (سعيد) " كنّا في غرفتي في المدينة الجامعيّة ، وكان سعيد منقبض النفس يلهث مبهورا قال: أحبّك واحترمك، ولكنّني لا استطيع أن أُمارس معك ذلك، هو ممارسة الجنس

معي... سنتـزوّج وبذلك نستطيع فعل ذلك سبيـلا. أُريـد أن أُمـارس معك ذلك حسب الأصـول ... لوحدي أنا أُريد أن اغسل دمي... هاج سعيد، وقد ظننت بأنّ ذلك ليس من جـراء التفريـغ الجنسيّ فحسب، وإنّما عليه أن يحسّ بجزء من الإثم ... أخذت وجهه بين يديّ وقبّلت عينيه وجفّفت دمعه، إنّ الكبرياء والشّرف بالنسبة لي هما بالضبط ممارسة تلك العملية بكل حريّـة، لقد كانت المرّة الأولى تلك وإن كانت تفتقر إلى المهـارة والخبـرة. حدثًا عظيمًا في حياتـي خبرت به شعورا ملؤه الرّزانة والوقار" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٥٧ ـ ٥٨).

فما يُلفت نظر الباحث في النصّ السابق، هو تبجّح البطلة ومطاولتهـا بالتعـدّي على ذاتها، بوصفها أنثى يجمّلها الحياء، ويعلي من شأنها الالتـزام بتعاليـم الدّيـن، والعرف الاجتماعيّ الذي يناى بنفسه عن التزمت، ويأخذ من الدّيـن ثوابته للمحافظـة على الأنثى، لكنّ البطلة/الكاتبة كانت لها وجهة نظرها، إذ تـرى أنّ في ذلك محاولـة للانتصار لذاتهـا، والتعبير عن معاناتها، في ظل سلطة المجتمع الذي يُقيدها بسلاسل المحظور بطريقة العيش والسلوك وغير ذلك، وهذا ما دعاها إلى الخروج فعـلًا واقعـا بممارستهـا الجنس، واعترافهـا صراحـة بهـذا الفعل تمردًا باستعمال جسدها وسيلة لممارسـة الحريّة في (الحب والجنس)، وكذلك التقليل من سلطة الآخـر/الذكـر، وتبادلهـا الـدّور معه بتصـدّرها السّيـادة، فأظهرت الذكر/الحبيب ـ سعيد ـ وهو يبكـي ندمًا علـى ممارستـه الجنس معهـا، وهـي من تحـاول التخفيف عنه، بل هي مَن بادرت بعرض جسدهـا عليه، فاعترفت أنّ ممارسـة الجنس معـه كـان حدثًا عظيمًا أشعرها بالوقار، في محاولة منها الابتعـاد عن الكبت والقهـر إلى فضاء رحب لا يؤمن بحتمية التهميش والإذلال، فجاء فعلهـا اختياريًّا متجاهلـة سلطـة المجتمـع الرقابيّة التي ترسم خارطة حياة الأنثى مسبقًا عن طريـق ارتباطها بـزوج يتمّ اختيـاره لهـا، فالزّواج في تصوّرها أشبه بسيرك لا يعنيها بشيء قـدر عنايتهـا بممارسـة الحب مع رجـل بعيـدًا عن القيـود الاجتماعية ومؤسسة الزّواج ، فهـي تبتهج بتحرّرها رغم محظورات العائلة والمجتمع (مقدم، ٢٠٠٦م: ٥٨).

إنّ الصورة التي تكوّنت حول المرأة بتمكين جسدها وممارستها الحـب والجنس، جعـل منها ومن ذلك الجسد في دائرة الشبهـات، وعليه " فـإن وظيفـة السرد النسـوي كانت هي المعارضة السّاخرة لهذه النظرة، من خلال جعل الجسد مصـدرا للفخر، تجاهر المرأة بنزعتـه الإيروتيكية " (وهابي، ٢٠١٦م: ١٤٤).

لقد توزّع رجال البطلة/الكاتبة على طول الرواية بحكاياتهم المختلفـة، إذ مثّلـوا جانبًا من علاقاتها مع الآخر/الذكر التي صرّحت بها معلنة تمردّها على المحظـور، متجاهلـة كلّ الرّقابات؛ لتبيّن تجاوزهـا وتخطّيها التّحجيم الذي وُضعت فيه الأنثى، حيث يحسب عليها حتى صوتها الذي يعدُّ عورة. كيـف وهي تعتـرف بعلاقاتهـا الجنسية والغرامية، حتّى مع رجـال يعتنقون ديانات أخرى غير دينها (ينظر: مقدم، ٢٠٠٦م: ٨٩، ١١٠، ١٢٠، ١٢٩، ١٣٩).

وعلى الرّغم من ذلك، فقد تجد البطلة/الكاتبة من حين إلى آخر تحـاول أن توقـع المتلقي في شرك الاعترافات، في محاولـة المزج بين سيرتهـا وبطلـة روايتهـا؛ عن طريـق التصريح باسمها صراحة، وذلك للرّبط

بين السّرد الروائيّ وسيرتها الشخصيّة وتجربة حياتها.

وفي رواية (كم بدت السماء قريبة) (الخضيري، ٢٠٠٣م) للكاتبـة (بتول الخضيـريّ) التي حقّقت حضورها؛ لما تمتعت به كاتبتها من جرأة في عرض حياة بطلاتها التي قد توافق أو تحاكي حياة وتجارب الكاتبـة نفسهـا في أكثـر من جانب، ففي الرّوايـة قدّمت الكاتبة بطلتها منذ سنوات الطفولة وحتّى مرحلة المراهقة، وما بعدهـا ذلك، لكنّ الأهم هو تجارب البطلـة نفسهـا، وعلاقتهـا الغراميّة التي جمعتهـا (بسليـم النّحات) في العـراق، والعلاقة الجنسية التي أقامتها في لندن مع (آرنو)، واكتشافها خيانة أمها لأبيها في موقفين اعترفت فيهما البطلة، بطريقة كشفت فيها عن موقفها في تجاوز

المحظور والقيم المجتمعيّة في بيئة عربيّة لها سلطتها الرقابيّة (ينظر: الخضيري، ٢٠٠٣م: ٥٢، ٧٢، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٥، ١٩٠).

يمثّل المجتمع سلطة فاعلة تؤثر في طبيعة العلاقات التي يحلّلها الشّرع بين أفراده، وكذلك يتحكّم بطبيعة العلاقات التي يعدّها محرّمة بمخالفتها التقليد الاجتماعيّ والشرعيّ، فالزّواج هو العلاقة التي تسمح بإقامة العلاقة الجسديّة أو الجنسيّة بين الرجل والمرأة، ومن ثمّ فإن (بتول الخضيريّ) امتلكت من الجرأة الكثير بتناولها قضيّة حسّاسة مثل (الجنس والحب)، فكان هدفها طرح قضيّة بالغة الأهميّة، تتمثّل بالاغتراب الذي يحصل جراء الزواج بالأجنبيات، ومنها تتعرض لقضية الجنس واختلاف الثقافات، فالثقافة العربيّة والدّين، تعد هذه الممارسات إذا كانت خارج مؤسّسة الزواج من المحرّمات والمحظورات، إلّا انّ بطلة هذه الرواية عمدت إلى تجاوز سلطة المحظور؛ فتعترف بإقامة والدتها (الأجنبية) علاقة جسديّة محرّمة مع صاحبها الأجنبيّ الذي اعتاد زيارتهم بين مدّة وأخرى، وعن هذا الأمر تقول: "أودعني باص المدرسة باب البيت وابتعد. اتجهت نحو غرفة المخزن ... بعد قليل سمعت كركراتهم الانكليزيّة تأتي من فتحة أكلت حافتها الرطوبة في جدار المخزن الخارجيّ. الباب مغلق ... اقتربت من الفتحة. أرمي نظرات تمسح زوايا المخزن..كانت الشّمس تخترق شباكًا صغيرًا عند حافّة سقف المخزن...أشعّة جانبيّة اصطدمت بأشياء خلف العمود لتعكس ظلالها على الجدار المقابل ... ارتفع أمامي ظلّ بكتفين عريضين يحتوي ظلًا بشعر ملفوف إلى الأعلى على هيئة كعكة... الظّلال تتقاطع، الكعكة تتدحرج. الشّعر يتهدّل يزداد الاحتواء، الكرسيّ يضطرب يشاركانه، الحائط أمامي مسرح لظلال تتلاطم...ازرع أثخن إصبعين في أذنيّ" (الخضيري، ٢٠٠٣م: ٥١ ـ ٥٢).

إنّ توظيف الجنس وتخطّي المحظور، من أهم القضايا التي تبنتها بعض الروائيّات في تقديم قضايا نسويّة، بمعادلة تقوم على الموازنة بين واقع الحياة، والعمل الفنيّ الإبداعيّ؛ لأنّ الفن "يعتبر الوسيلة الأهم، بل الوحيدة للتّعليم، الذي من جانبه يعمل على ترسيخ ونبذ ما يريد" (جاردنر، ١٩٨٦م: ١٤٣).

وفي موقف آخر للأنثى/البطلة باحت به، أو اعترفت عن قيامها بتجربتين خرجت بهما على المحظور، التجربة الأولى: علاقة حب ربطتها بالنّحات الذي ينتمي إلى الدّيانة المسيحيّة، والتجربة الأخرى: كانت مع (آرنو) عند سفرها لعلاج والدتها في الخارج، أسفرت تلك العلاقة عن حمل البطلة وإسقاطها الجّنين، ففي علاقتها الأولى تصور البطلة لحظة لقائها الأول الذي جمعها بحبيبها (النّحات) ـ المكلف بالخدمة العسكريّة ـ بعد أن زارته في سكنه، فتصف ذلك اللّقاء معترفةً باستسلامها في أوّل علاقة جمعتها بأوّل رجل "مدّ يده فاتحًا راحته في اتّجاهي دون أن يفتح عينيه ... لم أجد نفسيّ إلّا تحت المرايا. رأسي يدور. أوّلُ رجل ... ذراعيّ بدت تطبق على جوانبه ... المرايا تجسمنا معا. تدبُّ فيها الحياة. طبع الجّبهة على شفاهي ... جسده الأملس يقطر عرقًا أذاب جدار قصري. سبحت في محلول حليبيّ دار بي ... استسلمت، وقبل أن أغرق، ابتلعت موجة صغيرة من حلاوة أخيرة" (الخضيري، ٢٠٠٣م: ١٣٧ ـ ١٣٨).

ويتّضح أمرًا آخرًا حاولت أن تقدّم له الكاتبة بشكل غير مباشر، وهو اختلاف القيم والمحظورات بين حضارات العالم وثقافاتها المختلفة تبعًا لاختلاف البيئة، ومدى تأثيرها على الفرد، فنجد أنّ البطلة نفسها بما تحمله من ترسبات ثقافيّة وقيم وعادات ومعتقدات، عندما سافرت مع والدتها التي أُصيبت بمرض السرطان للعلاج في الخارج، حاولت أن تعمل بثقافة تلك البيئة، فيظهر تأثير البيئة والثقافة المنفتحة التي مكّنتها من ممارسة الحب في الشّارع، فقد اعترفت عن تفاصيل اللّقاء الذي تلخّص بعلاقة جسديّة استغرقت ليلة كاملة مع عشيقها، فتظهر تفاهمها وتصالحها مع جسدها، وكأنّهما عاشقين قديمين (الخضيري، ٢٠٠٣م: ١٨٥).

وبعد أن تعترف بممارستها الجّنس مع (آرنو)، تعمد إلى تجاهل المحظور لتقدّم اعترافًا آخر تمثّل: بقضيّة حملها منه، وهذا الاختراق واللّامبالاة، سبّبه أزمةً نفسيّةً تعرّضت لها البطلة، نتيجة شعورها بالوحدة والضياع، يضاف إلى ذلك طبيعة الثقافة هناك التي سمحت لها إشباع غرائزها المكبوتة، فتلخص نتيجة تلك الحريّة والانفتاح باعترافها "اعترض أسفل بطني شريط من لزوجة شفّافة، كأن حلزونا مبلّلًا بحجم الكفّ زحف فوقي، لم أدرك أنّني حامل إلّا بعد مضيّ ستّة أسابيع من دورتي الأخيرة، وأسبوعين من سفر آرنو إلى كينيا" (الخضيري، ٢٠٠٣م: ١٩).

يقع قارئ هذه الرواية في فخ الالتباس بين شخصيّة البطلة الورقيّة في الرواية والكاتبة نفسها، إذ يظهر التداخل والتقاطع بين الأحداث والشخصيّات، وذلك من جانب أم الكاتبة نفسها، بوصفها أجنبيّة الجنسيّة، وكذلك حقيقة الأمكنة والأحداث التي تمّ التركيز عليها، ومنها مرض والأم والسّفر إلى الخارج لغرض العلاج، كلها خيوط تربط البطلة بالكاتبة وتدفع القارئ والباحث للتّسليم بأنّها اقرب إلى سيرة الكاتبة.

إنّ طبيعة الحياة تعجُّ بالحقائق، لكنّها تحتاج من يمتلك الجرأة كي يعرّيها بعيدًا عن السّلطة والرّقيب، سواءً كان داخليًّا أم خارجيًّا، فالتشوهات والمحظورات بقدر تراكماتها، أصبحت ثقافة ترسّخت في الوعيّ الجمعيّ، حتى أصبحت من المسلّمات، فبطلة (هيفاء بيطار) في روايتها (يوميّات مطلّقة) (بيطار، ٢٠٠٦م) ، حاولت أن تنتصر لذاتها بالاعتراف، إذ تحاول أن تتحدّى الواقع والثقافة والمجتمع والتقاليد والأعراف الظّالمة؛ من أجل تقديم الحقيقة المغيّبة تجاه المرأة والإنسانيّة ككل، لتحقّق هدف إنسانيٍّ أسمى يخدم الجميع، إذ فتقول: "لا توجد لذّة في العالم تفوق لذّة الاعتراف، خاصّة إذا كان اعترافًا صادقًا، له هدف إنسانيّ، أن يقدّم خدمته للنّاس ... وسأحرِض باعترافاتي الجريئة تساؤلات في غاية البساطة... لماذا تقاليدنا وعاداتنا ظالمة في بعض جوانبها وخاصّة للمرأة ..."(بيطار، ٢٠٠٦م: ٨ ـ ٩).

ففي هذا النّص يظهر أنّ البطلة/الكاتبة حاولت أن تبتعد عن مداعبة عواطف المتلقي لمدّة محدّدة، أو آنيّة تجاه قضيتها كامرأة، وهدفت إلى إثارة كوامن الإنسانيّة، وفتح الآفاق أمام الفكر؛ من أجل السّمو بالإنسان والإنسانيّة بعيدًا عن كل التراكمات والترسّبات التي خلّفتها المجتمعات .

إن معاناة المرأة ووجعها وإحباطها، أدّى إلى انهيار أحلامها وتكسّرها على دكّة تناقضات المجتمع وواقعها التي تراه قد تسلّط عليها بوصفها أنثى؛ فخروج البطلة على المحظور الاجتماعيّ بممارستها الحب، قد لا يكون في بعض الأحيان اختياريًّا، وليد حب وأُلفة مع الآخر/الحبيب، وإنّما قد يكون تمرّدًا سببهُ التسلّط والكبت والتهميش الذي تعانيه شخصيّة الأنثى، سواء كان من الأسرة أو المجتمع كحلقة أوسع، وهذا ما حاولت أن تتبنّاه بطلة (هيفاء بيطار)، إذ تبيّن أنّها عاشت مرارة الظّلم من الزّوج والمجتمع الذي شاطره الدّين بذلك، فبقيت معلّقة لم يحتويها الزّوج، وبعد أن طُلّقت لم يتفهّمها المجتمع هو الآخر، لمجرد أنّها مطلّقة، فكان الحب هو المتنفّس الوحيد ليخفّف حدّة الضغط النفسيُّ، ويعالج عذاب النّفس، ويعيد للذّات كرامتها وكينونتها "وبعد سنوات من الصّراعات القاسية، والثّورات الطّاحنة التي خضتها مع نفسي، قرّرت في لا شعوري أنّ المتنفس الوحيد لي هو الحب، وكما كنت ضحيّة لقوانين لا تفتح باب الحوار، بل تُطْلق قوانين لا إنسانيّة ولا معقولة ... وأظنُّ أنّي لو كنت مرتاحة الأعصاب، ولا أحسُّ أنّ روحي تئنُّ تحت قهر وكبت طويلين؛ لما اخترت هذا الحبيب أبدًا ... وهكذا كان الحب الأهوج هو الثّقب الوحيد في كرة البخار المتكاثف التي أعيش داخلها" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٧٢ ـ ٧٣).

وتعمل (كاملة) بطلة رواية (حكايتي شرح يطول) (الشيخ، ٢٠٠٥٥م) للكاتبة (حنان الشيخ)، على تعرية المجتمع بسلطته الأبويّة التي أجبرتها على الزواج من زوج أختها المتوفاة، ممّا دفعها إلى التمرّد، والخروج

على سلطــة المجتمع والمحظورات، إذ تعتــرف بعلاقــة الحب مع حبيبهــا (محمــد) خارج مؤسسة الزّواج التي تم أجبرت عليــه؛ وذلك لانعدام المثاليّــة والانسجام بين الزوجين. فالقضيّة التي عملت الكاتبة/البطلـة على تقديمهــا لم تكن عبثًا، بل هــي محاولــة تقديم مبرّرات هذا الخرق، ومن ثمّ نقد السلطة بأشكالهــا، لمصادرتهــا الحريّة الفرديّة بشكــل عامٍ، والأنثويّة بشكل خاصٍ، ومنها حريــة العيش تحت مسمّى (الزواج)، فجنّدت بطلتها إلى التصريح بعلاقتها، كجانب من جوانب إثبات الذات وكسر القيود التي كبّلتها وبنات جنسهــا، فتعترف البطلــة كيف أنّهـــــا كانت تتسلّل إلى غرفــة حبيبها لتمارس معــه الحب، والعلاقــة الجسديّة المحرّمة، وهي متزوجة "أدخل من الباب الخارجيّ المفتــوح بخفّــة الرّيشــة، وأخطــو خطوات قليلة من الرّدهة إلى جهة اليمين حيث غرفته ... يقترب منّي ماسكًا يدي ... تحيــن مني نظرة واحدة على شعره، فأرتمي على صدره، وهو يضمّني إليه بكلّ قوّة ... أخذت ألقــاه كلّ يوم تقريبًا، فور عودته من عمله في الأمن العام، أي حوالــي السّاعة الواحدة، وفي غياب كلّ من زوجي، وشقيقي العابس في عمليهما ... يقترب منّي ويقبّلني ثم يضمّنــي إليه محاولًا ملامسة نهديّ... أرتاح فجأة، وأترك له شفتي، لتفارق يدي صدري ..." (الشيخ، ٢٠٠٥٥م: ١٣٧ ـ ١٣٨).

فيلحظ من ذلك أمران: الأول يتمثّل بمحاولتهـا إظهار الأنثــى بهويّة جندريّة متمـرّدة، تقاوم التهميش بالتمرّد، وتكسر شكوت الآخر/الذكر/المجتمع، بمخالفتها المحظـور، وتبادلـــه الدّور، فهي من تبادر بالذّهاب إلى غرفة (محمد) وتسلّمه جسدها، والأمر الآخر: أنّهـــا بعد أن وجدت ما لم تكن تجده عند الزّوج من ألفة ومحبّة، ووجدت ذاتها المغيّبة؛ أخـذت تتمادى باللّقاء بحبيبها بشكل شبه يوميّ، إلّا أنّ تراكم الأعـراف والتقاليـد والمحظــورات بدأ يطفـــح إلى السّطح ويغلب على وعيها، على الرغم من قناعتها ومحاولتها المتمــرّدة للحصــول على حريّتهــا، إذ تعــود وتعتــرف بذنبهـــــا وخوفهـــــا من ممارســة المحظـور والمحــرّم مع (محمد) "يُقبّلني بعنف، ويحدث ما لم يكن في الحسبان: نطير، نحلّق، وعندمـــــا نعــود نحطّ بقلبينا وجسمينا في الغرفة، ونأخـذ بالبكــاء ... نبكي لأنّ محمد الشّهم ذا الأخلاق الرّفيعة يطـــارح امرأةً متزوّجــة الحب، نبكـــي لأنّي أخون زوجي ... فدبّ فيّ الخوف الشديد وأنا أُفكر بأنّي سأحمل بجنين محمد وسيعرف الجميع بأمر علاقتي به" (الشيخ، ٢٠٠٥٥م: ١٣٩ ـ ١٤٠).

فليحظ انّ قضايا (الحب والجنس) من القضايا المهمّة والمحظــورة التي لاقت اهتمامها في السّرد النسويّ، إذ استطاعت الأنثى اقتحام ساحتها، واعلانها التمرّد على العرف والقضايا وحتّى الدّين، باعترافات الأنثى نفسها، ســواء كان من أجــل إثبات الذّات الانثويّة واستعــادة حريتها المصادرة تحت مظلّة الــزّواج، أم من أجل كســر القيــود التي كبّلت الأنثى على أثر تراكمات اجتماعية متأصّلة.

٢ ـ قضايا الزّواج والطّلاق :

يعدّ النّص السرديّ الروائــيّ بصــورة عامّــة، والنسويّ منه على وجه الخصوص أحد الوسائل التي عملت على تبنّي القضايا التي تشغل المرأة، سواء أكان في القضايا الشخصيّة أم في الموضوعات والقضايا العامّة، فضلًا عن قضايا المجتمع الأخرى، فحملت نصوصهنّ السرديّة قضايا متعدّدة تتقاطع في اغلبها، إلّا أنّ قضيّة المرأة هي من أهــم ما يشغــل المتن السرديّ النسائيّ إذ أنّها " تتأسّس على المكاشفة والاعترافــات الصامتــة التي يتداخــل فيها الواقعيّ والمتخيّل، والحقيقيّ والحلميّ" (جمعة، ٢٠٠٥م: ٧٥).

في بعض الأحيان تجد أنّ السرد الروائــي، أو على الأصــحّ الروائيــات يتّخــذن من قضايا الزواج وسيلة لعرض قضيّة لها وجودهــا الهــام في المجتمــع، وكأنهــا تقــدّم لوحــة فسيفسائيّة تحتوي الكثير من الانكسارات والكبت

والتشظـــيّ، لمعانـاة الذّات الأنثويّة الواقعــة تحت سلطـة المحظورات، ممّا يشكّل دافعًا قويًّا للتمـرّد والخــروج على تلك المحظورات من أجل إحداث تغيير وحركيّة، للخروج من القيود الاجتماعيــة والثقافية التي ترى بطلات السّرد الروائيّ النسويّ أنّها حنّطتهــا، وحالت دون تحقيق حريّتها.

إنّ من بين القضايا، قضية الزواج ورابطة الانتماء التي يعمـل الطرفان على تحقيقها، ففي روايــة (كم بدت السماء قريبة) قدّمت البطلة قضيّة تقترب من الموضــوع ذاتــه، كشف ذلك حوار البطلة مع والدتها ذات الجنسية الأجنبيّة التي تركت بلدها (انكلترا) ملتحقة بزوجها العراقيّ الجنسيّة، في محاولة منها تحقيق الانتماء إلى بلد الـزّوج، إلّا أنّهـا عانـت الإحبــاط بسبب عدم تمكّنها من تحقيق ما كانت تأمله، فأخفقت في إسعاد الـزوج، وكـذلك أخفقت في التآلف في فهم البيئة الشرقية، فتعترف بتلك الإخفاقات وبخيانتها الزّوج من خــلال إقامتهـــا علاقة غرامية جسديّة مع (ديفـد) ذلك الرّجل الذي ينتمي إلى بني جنسها، فقـدّمت اعترافاتها بمقاطع قصيرة، لكنّها اختزلت الكثير، وكأنّها شهقات تحمـل معان كثيــرة، وتجلّــى هذا عن طريق حوارها مع ابنتها، إذ تقول: "لم أشعر في حياتـي بالإخفاق مثلمـا أشعــر به الآن... أنواع إخفاقاتي كثيرة، حملت بك خطأً، وأخفقت فــي إصلاح الخطــأ... ثم تزوّجت وأخفقت في إسعاد الــزّوج ... ثم تغرّبـت وأخفقت في فهم بيئة زوجي ... ثم أحببت رجلا آخــر من بني جنسي من خلف ظهر الزّوج، ومـع ذلك أخفقت في الحفــاظ على العشيــق ... لم أعـد أنتمي إلى هنا عندما غادرت انكلترا، حينها قــرّرت أن أحــاول الانتمـاء إلى الشّرق، لكن لم أنجح في انتمائي إلى الشّرق رغم كل محاولاتي" (الخضيري، ٢٠٠٣م: ١٦٦).

إنّ القيود الاجتماعيّـة التي تفرض على الأنثى كثيــرة، وخصوصا في مجتمـع شرقــيّ رجوليّ محافظ؛ إذ ينظر إلى المــرأة كأنّها جسـد يحسب عليه حركاته وسكناتــه، فتبدو الأنثـى مكبّلة بالأصفاد في كل شيء، لكنّها

عندما تخترق المحظور، وتعرض اعترافاتهـــا، فأنّ ذلك يحقّق لديهـا شعورًا بالحريّة المنتهكة، ســواءً كانت الحريّة الجسديّة الجنسيّة، أم حريّة الذّات.

فقضيّــة الزّواج عندما تفرض على الأنثى تصبح أمرًا واقعًا، لا يمكن رفضـــه في ظلّ السلطة الأبويّـة والأعــراف، وما على بعضهنّ إلّا أن يتّخــذن الــزّواج وسيلــة ليُحقّقن عن طريقهــا كـلّ الرّغبات الممنوعة والمكبوتة، فبطلة (اسمه الغرام) (صبح، ٢٠٠٩م) للكاتبة (علويّة صبـــح)، تخترق المحظورات، وتعترف أنّ زواجها كـان وسيلة حطّمت عن طريقهـــا الحواجز المتمثّلة بجدار البكـارة، لتتحرّر لديها كل الرّغبات المكبوتة "حين خضت التجربة مع زوجي، خضتها كمسألة خلاص من قدريّة جـدار البكارة الحاجز لكلّ الرّغبــات، شعرت بأنّه صـار متحرّرًا، وإنّه مثل جميع الأشياء النبيلة في الكون، محكــوم بثنائيّــة القـول والرّفض، اللّهفة والنّشوة، الوجع والمتعة، الاستجابة والصّد" (صبح، ٢٠٠٩م: ٤٥ ـ ٤٦).

إنّ مؤسّسة الزّواج وضِعت تلبيةً لرغبات الأنثى والذّكر على وفق أُسس تضمن حقوق كــلٍّ منهما، إلّا أنّ تلك المؤسســة انحرفت عن تلك الأسس، لتتحوّل إلى سلطة تقمع حقوق المرأة، وهذا ما خلق في وعيها نظرة متشائمة وتعيسة، وحالة من عدم الاستقرار النفسيّ تجـاه الزواج، فعمدت إلى كشف زيف العلاقــة الزوجيّة غيــر المثاليّة، ومحاولــة إظهــار الحقيقــة ورفض السلطة الذكوريّة، وكذلك تبــادل الأدوار بين الرّجــل والمـرأة، في محاولـــة لتحجيمـه وإظهاره بمظهر الضّعف والشّفقة، (فنهلــة) عندما تعرّضت للقمــع، وسُلبت حريّتهـا وأُجبرت على الزواج مـن شخص آخـر، بدا جسدها منفصلًا عنهــا، وكأنــه لامـرأة أخرى، فأصبحت فاقدة الشعور والرّوابط التي تقام عليه مؤسسّة الزواج الحقّة، حتّى أنّها أظهرت شفقتها عليـه، إذ جسّدت كل ذلك من خلال ليلة زفافها، وكأنّهـا محاولــة من البطلــة لتقديم تراجيديا الظّلم والتّهميش والاضطهاد ـ الذي تتعرض له هي وكل أُنثى ـ وتضعه أمـام المتلقّي لإيجاد حلول إنسانيّة "في ليلـة زفافنا الأولــى، عندمـا فضّ زوجـي بكارتـي، انتابني شعور بالشّفقـة عليه، أحسست بأنّي لم أُسلّمه جسدي، كنتُ منفصلة عن

جسمي تمامًا، وأشعـر بأنّ هـذا الجسـد الذي يمتطيه هو لامرأة أخرى ... غاب عنّـي كـلّ شعـور، ولم أحسُّ إلّا بـأنّ جسـدي آلة ساعدته على اختراقها" (صبح، ٢٠٠٩م: ١٢٣ ـ ١٢٤).

ومرة أخرى تصف ليلة زواجها بأنّها أشبه بحالة حيوانيّة "لكنّي في تلك اللحظات كلّها، كنت أشفق على ذلك الرجل الذي امتطاني كما تمتطى البهيمة ... هكذا بـدا زوجـي ليلةزواجنا " (صبح، ٢٠٠٩م: ١٢٦).

وكأن البطلة باعترافاتها تحاول تجاوز المحظور، معلنة تمرّدها على الترسّبات المتراكمة حول هامشيّة المرأة وانعدام التكافؤ داخل مؤسّسة الزواج خاصة "وأنّ المرأة التي تدخل هـذه المؤسسة ـ غالبا ـ مرغمة، وأنّ لاحقّ لها في اختيار شريك حياتها، لأنّ هذا يتنافى وعـادات المجتمع" (بوزة، ٢٠١٦م: ١٠٤). وهذا ما دفع بعضهنّ إلى التّمرد وإعـلان الحاجة للابتعـاد عن التسلّط والقسوة والتمييز والاضطهاد التي تقيمه العائلة وشـرك العـادات، وتصريـح الأنثى وإعلانها الحاجة إلى زوج مثاليّ، أو الخروج على المحظور والمطالبة بالاقتـران بزوج، وأحيـانًا أن يكون من ديانة مختلفة، وهذا ما أفصحت عنه بطلة رواية (رجالي)، إذ أعلنت عن وتمردها وخروجهـا على الأعـراف، واعترافهـا برغبتهـا الـزواج من شخص ينتمـي إلى الدّيانـة اليهوديّـة " أنا سأتزوّج يهوديًّا" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٦٤). وكان الدّافع لذلك قويًّا نتيجـة تراكمات الكبت الأنثويّ في مجتمع تحكمه سلطة تعمل على قمع الأنثى" كنت أريـد ذلك بكـلّ قـواي ردًّا علـى الفصل الجهنمـيّ بيـن الأجناس والطّبقات والأعراف ... ورغبة في توجيه ركلـةً قويّةً لـذلك التّمييـز المتداخـل ... واقتنعت بأنّ وحدهم رجال الأمكنة البعيدة، رجال أرض أخرى سيقدرون على مساعـدتـي فـي الخلاص تمامًا من فوضى الجزائر" (مقدم، ٢٠٠٦م: ٦٤). ففي هـذا النصّ تظهر محاولـة لكسـر البعـد النقـديّ لتراكمات المجتمع البطريركي الأبويّ الذي تتسيّده الهويّة الذكوريّة.

إنّ عقد الـزواج من القضايـا الاجتماعية المهمّة التي كانت حاضرة في السّرد النسويّ، التي كابدت فيها النساء الكثير، فأخـذت هذه القضيّـة مجالها في بيان تلك المعانـاة، فبطلـة (يوميات مطلقة) التي تزوجت وانفصلت عن زوجها، بعد أن أنجبت منه طفلـة؛ تعلن عن رغبتها في الاعتراف الصّادق الـذي يرتبط بأهـداف وغايـات إنسانيّـة تتمثّل بنبـذ ونقض تراكمات غبار العادات الظّالمة (ينظر: بيطار، ٢٠٠٦م: ٨). فمخاض تلك التجربة، وما سببته من الآلام وعذاب الزّوج والزواج غير المتكافئ؛ شكّل منها إنسانة جديدة بوعي جديد لكل ما يحيط بها من اضطهـاد، فتمخّض ذلك بتكوين ثقة عالية وشخصيّة قويّة تتحدّى الزوج ومؤسسة الزواج غير المتكافئـة انطلاقًا من قضيّتهـا الخاصّة إلى قضيّـة عامّة تسيطـر على النسـاء التي تكبّلهـا عبوديّة الزواج، فتقول: "استعدت ثقتي بنفسي التي كانت عبدة للخوف، الخوف من الزّوج الذي يبنـي قوّته الوهميّة على خوفي، ولولا خوفي لما كان قويّا أبدا" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٤٢).

إنّ الخوف وانعـدام الثّقة يمتدّان بجذورهما إلى زمن بعيـد، فهي نتاج تراكمات ثقافيّـة، وهذا ما عبّرت عنه البطلة، فأشارت إلى أن رابط زواجهـا بني على أُسس خاطئـة، إذ كـان التّسرع وسوء الاختيار، والخوف من العنوسة وعـدم الزواج، الدّافـع الأهـم على الرّغـم من مستوى النّضـج للبطلة، سواء أكان النضج البايلوجي، أم النضج الثقافيّ الذي أفصحت عنه، وهذا خطأ تقع فيه معظم الفتيات، فتعرض ذلك عن طريـق منولوجها وحـوار الذّات "لماذا تزوّجته وأنا كنت ناضجة، أكملت دراستي العليا ... كانت جرثومة خبيثة تفتك بأعصابي هي جرثومة الخوف...هذه الجرثومة مستوطنة منذ زمن بعيد، بعيد في بلادنا... واعترف ببساطة إنّني تزوّجت خوفًا من عدم الزواج" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٦٣ ـ ٦٤).

إن المعالجة الخاطئة التي قامت بها البطلة للتغلب على الخوف من عدم الـزواج كان بزواجها، على الرّغم من عدم قناعتها بالزّوج، وهذا ما اعترفت به، إذ تقول: "ما أردت قولـه إنّي تزوجت بهدف الزواج، كان الزواج ضريبة لابدّ منها، ولم يكـن الزّوج مهمًا بحدّ ذاتـه، المهم الزواج ثم الزواج" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٦٦). إلّا أن البطلة حوّلت كل ذلك الألم

والخوف إلى قوة دفعت بها إلى أن تتحدّى المحظور، وتمارس حريّتها، فأحبّت رجلًا آخر، لإيمانهـا أنّ الحب هو العلامـة الفارقـة بيـن الإنسان والحيوان، وقد تمارس السلطة الأبويّة العائليّة، أو الجمعيـّة (المجتمع) لغرض عقـد الزواج بصورة إجباريّة، ما دفـع الكاتبـة إلى طـرح هكـذا قضيـة عن طريـق بطلتها، إذ تم خـرق المحظور والتّعدي على الرقيب بأسلوب مخطّط لـه، من أجـل خدمـة قضيتها، وتعرية السلطة وكشف عيوبها، وكذلك كانت محاولـة إثبات الـذّات؛ إذ أظهـرت معاناتها لتكون انطلاقة في مجال أوسع، عن طريق اعترافاتها وتمرّدها وكشفها زيف وتسلـط العادات والتّقاليد التي حُمِلت محمل التقديس، وكأنّها دستـور إلهـيّ لا يُقبـل النّقاش فيه، ولا يصحُّ تجاوزه .

وقدّمت بطلة حنان الشيح في روايتها (حكايتي شـرح يطول) قضيّة عقـد قرانهـا وهي طفلة، لم يتجاوز عمرها عشر سنوات على زوج أختها المتوفّاة الذي يكبرها بكثيـر، فقدّمـت عبر قضيّتها قضايا المرأة بشكل عام، وصيغت بصيغـة "المـرأة الضحيّـة، ضحيّـة الرجل والأب والأخ والزّوج والمجتمع" (خريس، ١٩٩٦م: ١٧٨). وعن هذه المسألة تقول: "كنت ألعب على السّطح عندمـا نادتني أمي وزوجة شقيقتي العابس، لتطلبا إليّ الدّخـول إلى غرفـة الصبيـان، حيث أقول كلمتين: (أنت وكيلي)، ثم أخرج وأكمل لعبي. تحكم زوجـة شقيقـي المنديـل الأبيض على رأسي. أدخل وأجد نفسي أمام رجال يعتمرون الطرابيش الحمراء. فجـأة يسـأل الرجـل ذو العمامـة عن عمري، فيجيبه شقيقي: (عشر سنـوات) ... يسألنـي أن أُردّد من بعـده: (أنت وكيلي)، فـأُردّد" (الشيخ، ٢٠٠٥٥م: ٥٣ ـ ٥٤).

إنّ حضور البطلة، جاء لكشف ظلم وحيف المجتمع والأعراف واستبـدادها، وكذلك هي محاولـة لإبراز المكبوت والبوح بمعاناتها، وإدانة للسلطة الأبويّة والذكوريّة التي لم تعط المـرأة مكانتها ولم تقم لها وزنا في المجتمع ، بل عملت على التقليل من شأنها وأهميتها .

وتعمل البطلـة بمحاولة منها لإثبات الذات الأنثوية؛ فتستدعـي ماضيها ومعاناتهـا في مسألة الزواج، وإظهار سلطة الأهل لإجبارها على ذلك على الرّغم من كثرة البكاء ومحاولات الهرب والانتحار، بمشهد تراجيديّ يكشف عمق المأساة والألم، فتقول: "ولمّا لم يعد بوسعـي سوى المزيد من الصّراخ والبكـاء، إذا بشقيقـي العابس وأمـي يدفعاني إلى الغرفة حيث كان زوج شقيقتي ينتظر. أهرب من الغرفة إلى فراش أمّي التصق بهـا وأبكـي ... وهكـذا يتكرّر المشهد ليلتين متتاليتين ... وفي اللّيلـة الثالثـة أدخلونـي إلى الغرفة، بعـد أن انصعت إلى أوامرهم ... يقترب منّي زوج شقيقتي، فأكمش فستاني وأغمض عينيّ، وأعضّ زندي، أشعـر بألم فضيـع عند حلقي، وبين فخذيّ معًا ..." (الشيخ، ٢٠٠٥٥م: ٨٥ ـ ٨٦).

إنّ هذا الإقصاء والتهميش، وطبيعـة الأعـراف والسلوكيّات الظالمـة؛ أثرت كثيـرًا على بطلة الرواية، ممّا دعاها إلى التمرّد وطلب الطّلاق، ومحاولتها الزواج بمن تحبّ، على الرّغم من رابط الأبناء الذي جمعها بزوج شقيقتها، إذ تعترف بأنّها جوبهـت من الأهـل ونظـرات المجتمـع التي تمقتها؛ لأنّها خالفت العرف الاجتماعيّ وتراكمات التقاليـد والعـادات المتّبعـة التي هي موضع تقديس لدى المجتمع (الشيخ، ٢٠٠٥٥م: ٢٢٥).

٣ ـ النظام الأبوي:

لقد عمد الفكر النسويّ إلى تأكيد، أو محاولة إثبات وبيان مرجعيّة النظام الأبويّ الـذي اتخذ فيه الرّجل موقع الصدارة، فالنظام الأبـويّ يبسط سلطتـه بتجذّره في كلّ شـيء، فكانت المؤسسات الدّينيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وكذلك الاجتماعيّة هي الوسيلـة لفرض تلك السلطة أو الثقافة (ابراهيم، ٢٠١١م: ٦٢). ففي السّياقـات الأيديولوجيـّة ترمـز السلطـة والهيمنـة إلـى الأب، لتسيّـده قمّة الهـرم الاجتماعيّ، لكنّه يرمز إلى الرّحمة والألفة في سياقات المجتمع الطبيعية (ينظر: واصل، ٢٠١٨م: ١٤٤ ـ ١٤٥).

إنّ الروائية أو الكاتبة في نتاجها السرديّ، تعمد إلى أن تأخذ مساحتها في الطّرح الذي يتميّز أحيانا بجرأة الشخصيّات وإمكانيتها النفاذ إلى عوالم ـ يغلب عليها ـ المحظور والتّعتيم وتلتزم الكتمان والمسكوت عنه، ومن بينها قضيّة المرأة التي قُيّدت بالمحظور والممنوع، (فمليكة مقدم) في روايتها (رجالي) تُظهر البطلة/الكاتبة متمردة على الأصفاد الحديديّة التي كُبّلت بها، إذ تتخطّى حواجز الرقابة الذاتيّة والخارجيّة، لتعرض مسألة تهميشها بايلوجيّا بوصفها أنثى في مقابلة مع الذكر من خلال حوارها المنولوجي مع الأب الذي همّشها وفضّل الابن/الذكر عليها، لا لشيء آخر سوى الاختلاف في تكوينه البايلوجي عن الأنثى، وكأنّها تسعى جاهدة إلى التخلّص من التصوّرات الفكريّة الأحاديّة التي تتطلّع إلى الأشياء بعين الذكورة فقط، فأظهرت عصيانها في محاولة لإثبات الذات الأنثويّة، ومحاولة إظهار وعيها للقبضة الأبويّة، أو السلطة الذكوريّة التي تقف حجر عثرة أمام حقوق المرأة وتطلعاتها وحريّتها، السلطة التي أظهرت الأنثى بصورة متراخية مهمّشة فتقول: "أبي يا أوّل الرجال في حياتي! منك تعلّمت أن أقيس الحب بمقياس الجراح والخيبة ... كنت تقول مخاطبًا أمي: (ابنائي) حينما تقصد إخوتي، وتقول: (بناتك) حينما كان الحديث يخصّنا أنا وأخواتي، وكنت تفتخر دومًا وأنت تنطق بـ (ابنائي)، بينما تعتريك لذعة الضّيق والسخرية بل والغيض، وأنت تخاطبها (بناتك)، وكان الغضب يتملّكك عندما أُعطي الأوامر، وهو ما كان يحدث في الغالب فالعصيان كان دأبي، وتلك كانت طريقتي الوحيدة في التأثير عليك" (مقدم، ٢٠٠٦م: ١١).

إنّ تأسيس ثقافة مغايرة لتراكمات الماضي في مجتمع محافظ من الأهداف التي سعت إليها بطلة (رجالي)، إذ حاولت تحديد مسار المستقبل في تحقيق العدل والمساواة بين الرجل والمرأة، فتطلّب منها اختراقا للمحظور؛ لتحقق الحريّة والتخلّص من براثن الهيمنة الذكوريّة، وهذا ما تجلّى في النصّ السّابق والنصوص اللّاحقة، فمحاولة السلطة الأبويّة بتغييب الأنثى وتفضيل الذكورة؛ يكشف عمق معاناة البطلة/الأنثى، جراء التمييز، ممّا سبّب أزمة نفسيّة ووعي عميق تجاه واقعها، فكان الدّافع للتّمرد والعصيان على النظام الأبويّ الذي افقدها إحساسها بالحب تجاه الأب القاسي، وفي هذا الموقف تعرض البطلة قضيّة بالغة الأهميّة، إذ تقدّم نموذج إنساني يندرج بوعي وتراكمات ثقافية إلى مجتمع النساء، فيُظهر هذا النموذج قدرته على تبنّي قضية كبيرة ، تتمثّل بالخروج على المحظور بمعارضة التمييز ومواجهة النّظام الأبويّ الذي أشعرها باليتم جراء التهميش الذي لاقته في كنف الوالد "في تلك المرّة يا أبي كان موتك هو ما تمنيته بكلّ ما يأتي من غضب وأحزان وآمال، كنت لأرغب في موتك تلك اللّحظة، لم يكن في مقدوري أن أُطيق ذلك الإحساس بأنّني يتيمة وأنت لازلت على قيد الحياة" (مقدم، ٢٠٠٦م: ١٤).

فشخصية البطلة/الكاتبة في أكثر النصوص تحاول أن ترسم صورتها التي تعكس جانبًا من واقع المرأة من موقع مواجهتها للمجتمع الأبويّ، كي تعرّي الواقع في شتّى صوره، الاجتماعيّة منها، والثقافيّة، وكذلك الجوانب النفسيّة التي تتجلّى فيها الذات الأنثوية في مواجهة مع السلطة بمكتسباتها التي تقلّل من شأن المرأة؛ لأنّ الأب أو السلطة الأبويّة تتحرّك على وفق الذهنيّة الذكوريّة الكامنة في اللّاوعي الجمعيّ، ووفقًا لذلك تنعكس صورة الأب النهائية في السرد، بوصفها مؤسّسه ثقافيّة سليلة وعي ثقافيّ موغل في النّسقيّة والنّمطيّة (واصل، ٢٠١٨م: ١٤٩).

إن السلطة الأبويّة التي تتسيّدها شخصية الأب، تظهر في بعض الأحيان بشخصيّة ازدواجيّة، وهذه الازدواجيّة خاضعة بطبيعتها إلى الوعي بالثّقافة الذكوريّة السّائدة، نتيجة تراكمات اجتماعيّة، ففي رواية (يوميّات مطلّقة) تطالعنا شخصية الأب المثاليّ، إذ تصفه البطلة تبعًا إلى طبيعة العلاقة التي تربطهما "إنّه أبي الحبيب ليس لرابطة الدّم بيننا؛ بل لأنّه بكل بساطة كان أبًا مثاليًا ..." (بيطار، ٢٠٠٦م: ٧٥). إلّا أنّ هناك قطيعة قد حصلت سببها تمرّد البطلة على الأعراف وزيف الأخلاق الشكليّة، وسلطة الزّوج المتسلّط الذي قاطعها لأربع سنوات، ممّا دفع الزوجة/

البطلة إلى التمرّد والخروج عن سلطة المؤسّسة الزوجيّة، فتقع بعلاقة حبّ مع رجل آخر، نتيجة قناعتها بزيف وتسلّط القوى الاجتماعيّة المهيمنة، إذ دفع هذا الموقف والدها إلى معاقبتها نفسيًّا، لاختراقها المحظور، وموقف الوالد مثّل نتيجة طبيعيّة لسلطة أبويّة ذكوريّة "تنصّب نفسها حامية للشّرف، وحصنًا أمام انحراف النساء وإغوائهن، بما يتناسب مع الموروث الميثيولوجيّ والتأريخيّ، وبدعم من المجتمع الأبويّ" (عبيد، ٢٠٠٧م: ٤٠).

فيأتي ذلك الوصف عن طريق اعترافها الذي تصرّح فيه بتعرّضها للنّبذ، جراء كشفها لأخلاقيات المجتمع التي تجزم بزيفها؛ إذ تقول: "لقد مررت بتجربة قاسية ... لقد عشت أبعاد كلمة مدمّرة كادت أن تسحقني، هي كلمة منبوذة ... أنا ابنة العائلة النموذجيّة المثاليّة، وضعتني الظروف عامدة وساخرة في خانة النبذ الاجتماعيّ... لأصير امرأةً متمرّدة، لأكشف النّقاب عمّا نودّ إخفاءه، لأنّني فضحت من حيث لا أدري أخلاقنا الشكليّة الزائفة، وفضائحنا التي اعتقدنا أنّنا سترناها جيدا بألف حجاب وحجاب" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٧٧ـ ٧٨).

وتعترف البطلة بتمردها الذي لم يكن متوقعا، إذ كانت مرغمة عليه، فتعبّر عن ما آلت إليه الأمور مع والدها بعد تمردها قائلة: "لم يخطر بباله يوما أنّ ابنته البكر التي تشبهه أكثر من بقية أولاده، سترفع راية العصيان والتمرّد يومًا، وتصير رغمًا عنها الابنة الضّالة ... التي عشقت رجلًا وهي على ذمّة رجل آخر" (بيطار، ٢٠٠٦م: ٨٠ ـ ٨١).

يتّضح عن طريق ما عرضته شخصية البطلة، أنّ الأب خالف منهجه النمطيّ تأثرًا بالسطلة الاجتماعية وتراكمات الثقافة وهيمنتها، فنبذُ الأب للابنة لم يكن صادرًا عن ذات الأب المنفردة عن مجتمعها، بل الذات التي أُشربت بثقافة لا تمنحه هويّته الذكوريّة، إلّا بمجاراته لها، لأنّه بدونها لن يغدو رجلا (زياد، ٢٠٠٩م: ٧٢). فتصف الابنة/البطلة تلك الجفوة بقولها: "ما كنت أتخيّل أن يصيبنا داء الخرس ـ أنا وأبي ـ ما عدنا نتبادل الكلام ... ذلك إنّ عيوننا كفّت عن الحوار ... لقد عشت أربع سنوات، أقصد أربع سنوات من الهجر في بيت واحد مع أبي دون أن تلتقي نظراتنا مرّةً واحدةً ... ذلك إنّ جرثومة الخرس تحبّ التفشّي والانتشار في مجتمعنا ..." (بيطار، ٢٠٠٦م: ٧٩).

الخاتمة:

لقد حفل السّرد النسويّ بقضايا متنوعة، اخترقت فيها الأنثى المحظورات، ومن بينها القضايا الاجتماعيّة التي تغذّت من العرف الاجتماعيّ الذي يتّكئ على ثقافة فكريّة ذات جذور ذكوريّة راسخة، فقد عرضت روايات هذه الدّراسة، قضايا اجتماعيّة محظورة، عن طريق اعترافات الأنثى نفسها، التي تخطّت فيها الرّقابات الاجتماعيّة، فتعرّضت لقضيّة الجنس والحب، التي مثّلت موضوعًا مهمًّا تمكّنت فيه من الغوص في أعماق المحرّم والمحظور، فعرضت قضايا يحمل أغلبها أبعادًا يمتزج فيها الإنسانيّ بالفكريّ والدّينيّ، تهدف بعضها إلى عرض قضايا الأنثى وازمة الذّات، وهويّتها المستلبة، فخاضت في قضايا حُرّمت اجتماعيًّا، ومن بين بينها قضية الزواج والطّلاق، إذ كانت دافعا مهمًّا أعطاها الجرأة في تقديم اعترافاتها، من أجل فضح تلك المؤسّسة التي تكيل بمكيالين، وتحتكم إلى السلطة الذكوريّة، فجعلت الأنثى أحد ضحاياها، وكذلك كانت محاولة لفضح مرجعيّة النظام الأبويّ التي ترى أنّه ينبسط بسلطاته الظّالمة.

وكذلك حاولت الانثى في اعترافات نبذ التصوّرات الفكريّة التي تنظر إلى أغلب الأشياء بعين ذكوريّة، وهذا ما دفع الأنثى عن طريق اعترافاتها إلى أن تتّخذ طريقًا يهدف إلى تأسيس ثقافة تنأى بنفسها عن تراكمات المجتمعات المحافظة التي قلّلت من شأنها، في محاولة منها للتخلّص من سلطة الشّد العكسي التي يتّبها الآخر تجاهها.

المصادر والمراجع:

***أ. م. د عبد الله حبيب، م. م سالم جمعة كاظم. (٢٠١٢م). الأنثى تبوح بسيرتها. مجلة القادسية للعلوم الانسانية.**

*** بتول الخضيري. (٢٠٠٣م). كم بدت السماء قريبة (المجلد ط٣). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.**

*** بو شوشة بن جمعة. (٢٠٠٥م). سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية (المجلد ط١). تونس: المغاربي للطباعة والنشر.**

*** جون جاردنر. (١٩٨٦م). في الرواية الاخلاقية (المجلد ط١). (إيشو أليس يوسف، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الثقافية.**

*** حنا مينه. (١٩٩٢). حوارات وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية (المجلد ط١). بيروت، لبنان: دار الفكر الجديد.**

*** حنان الشيخ. (٢٠٠٥٥م). حكايتي شرح يطول (المجلد ط١). بيروت، لبنان: دار الآداب للنشر.**

*** د. إيهاب النجدي. (٢٠١٧). أدب الاعتراف (مقاربات تحليلية من منظور سردي) (المجلد ط١). مصر: دار المعرف.**

*** د. عبد الرحيم وهابي. (٢٠١٦م). السرد النسوي العربي من حبكة الحدث إلى حبكة الشخصية (المجلد ط١). عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.**

*** د. عبد الله ابراهيم. (٢٠١١م). السرد النسوي ، الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية والجسد (المجلد ط١). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.**

*** د. عصام واصل. (٢٠١٨م). الرواية النسوية العربية مساءلة الأنساق وتقويض المركزية (المجلد ط١). عمان: دار كنوز المعرفة.**

*** سعيد بن بوزة. (٢٠١٦). الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي (المجلد ط١). سورية، دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.**

*** سميحة خريس. (١٩٩٦م). الخصوصية النسوية وتجلياتها الابداعية، تجربة جواهر الرفايعة. مجلة أفكار.**

*** صالح زياد. (٢٠٠٩م). القصة النسائية الخليجية. مجلة فصول.**

*** علوية صبح. (٢٠٠٩م). اسمه الغرام (المجلد ط٢). بيروت، لبنان: دار الاداب للنشر والتوزيع.**

*** ليندا عبيد. (٢٠٠٧م). تمثلات الأب في الرواية النسوية العربية المعاصرة (المجلد ط١). عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع.**

*** مارينا ستاغ. (١٩٩٥). حدود حرية التعبير (تجربة كتابة القصة والروايةفي مصر في عهدي عبد الرحمن ناصر والسادات (المجلد ط١). دار شرقيات للنشر والتوزيع.**

*** مليكة مقدم. (٢٠٠٦م). رجالي (المجلد ط١). المغرب: الدار البيضاء.**

*** هيفاء بيطار. (٢٠٠٦م). يوميات مطلقة (المجلد ط١). الدار العربية للعلوم، ناشرون.**